دعوة الى قراءة جديدة للنحو العربي

(وقفة مع فكرة الاسناد في بعض التراكيب الجملية)

د. خليل احمد عمايرة (*)

من البدهي ان اذكر بايجاز وانا امام قراءة لغوية في بعض انماط التراكيب في النحو العربي – شيئاً عن الدائرة التاريخية في القرن الثاني من الهجرة ، في ما يتعلق بالنحو من حيث تعقيده وتقنينه ومادة التعقيد والتقنين ،ولكني لا ارى ان من البدهي ان اقف طويلاً مع هذه النقطة وبخاصة امام القراء المتخصصين الذين تعد هذه عندهم من اول مايعلمون، فأقول لقد اقام الخليل بن احمد (رحمه الله)النحو العربي على نقطتين هامتين ، اولاهما وجود حركة اعرابية في اللغة العربية ،وهذه تمثل نقطة رئيسة فيها شأنها شأن حرف العربية ذاتها ، فلاسبيل للتخلي عنها،ولاسبيل لتغيير كيفية وضعها على المباني الصرفية في سلسلة النظم الجملي ، حتى ان قوة الاحساس بذلك قد دفعت بعض نحاة العربية الى حدّ النحو بأنه " علم وضع الحركات على اواخر الكلمات في الجمل ".

وثانيتها تفسير وجود الحركة الاعرابية في كل موضع بكيفية معينة (ضمة او فتحة او كسرة ... الخ).

وليست هذه من اللغة ذاتها ، بل هي نظرة فلسفية ابتكرها عالم له قوة بصير وعمق بصيرة ،امتلك ناصية لغته واخلص لها ، بل كان يرجو

(*) استاذ مساعد/جامعة اليرموك/الاردن .

(1) الايضاح في علل النحو ،٦٥-٦٦.

ان يقرب نفسه بها الي ربه، يقول الزجاجي (١)[١] " ... وذكر بعض شيوخنا ان الخليل بن احمد (رحمه الله) سئل عن العلل التي يُعتل بها في النحو فقيل له :عن العرب اخذتها ام اخترعتها من نفسك ؟ فقال " " ان العرب نطقت على سجيتها وطباعها وعرفت مواقع كلامها وقام في عقولها علله وان لم ينقل ذلك عنها واعتللت انا بما عندي انه علة لما عللته منه ، فان اكن اصبت العلة فهو الذي التمست ،وان تكن هناك علة ما ، فمثلي في ذلك مثل رجل حكيم دخل داراً محكمة البناء عجيبة النظم والاقسام وقد صحت عنده حكمة بانيها بالخبر الصادق اوبالبراهين الواضحة والحجج اللائحة ،فكلما وقف هذا الرجل في الدار على شئ منها قال : انما فعلت هذا هكذا لعلة كذا وكذا وبسبب كذا وكذا ، سنحت له وخطرت بباله محتملة لذلك ، فجائز ان يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار ،وجائز ان يكون فعله لغير تلك العلة ، الا ان ذلك مما ذكره الرجل محتمل ان يكون علة لذلك ، فان سنح لغيري علة لما عللته من النحو هو اليق مما ذكرته بالمعلول فليأت بها " يقول الزجاجي معلقاً على كلام الخليل " وهذا كلام مستقيم وانصاف من الخليل رحمة الله عليه "[١] واقول : وهذا كلام مستقيم ودرس عجيب من رجل واسع العلم والحكمة ،درس في تواضع العلماء .

التواضع الصادر عن قوة الشخصية وقوة العلم (اعتمد النحاة وعلى رأسهم الخليل تحديداً زمانياً حصروه بنهاية الربع الثالث (تقريباً) من القرن الثاني من الهجرة ، أي ببشار بن برد او بابراهيم بن هرمة،وتحديداً مكانيا حصروه في القبائل التي وسموها بقبائل الاحتجاج وهي : قيس

---

[١] السابق ،ص٦٦.

وتميم واسد وهذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولاارى انني معني هنا بتحقيق هذه النقطة التي جاء بها ابو نصر الفارابي بكيفية فيها بعض الاختلاف عما جاء بها ابن جني او اوردها السيوطي ، ولكن نقول : لما كانت هذه النقطة من اهم النقاط التي يتوارثها الباحثون الخلف من السلف فاننا نرى ان نلفت الانتباه اليها وقد افردنا لها بحثاً خاصاً(ينشر في العدد ٢٣ من مجلة كلية الاداب /جامعة صنعاء) كما انني لاارى انني معني ايضا بالاطالة وتفصيل القول في ان هناك قائمة اخرى لابي زيد الانصاري ، وهو الذي يصفه سيبويه بالثقة ، ينص فيها على انه لايقول اذا قال قالت العرب الا اذا سمعه من هوازن ، او كما يقول :" الا اذا سمعته من هؤلاء : بكر بن هوازن وبني كلاب وبني هلال او من عالية السافلة او من سافلة العالية والا لم اقل قالت العرب " . ولا انا معني كذلك بالاطالة في مناقشة القائمة الثالثة عن ابي عمرو بن العلاء في ما يأخذه السيوطي عن الاصمعي : افصح الشعراء السناً واعربهم اهل السروات : هذيل ،وثقيف ، وازد شنوءة وهم بنو الحارث بن كعب بن الحارث ".فالوقوف مع هذه القوائم وغيرها ومدى تأثير ذلك في بناء القاعدة النحوية يستحق وقفة اطول جعلت لها بحثاً مستقلاً .

وما تعرضت لهذا كله الا منبهاً لعدد من النمقاط التي قد يلتفت اليها غيري اكثر مما التفت انا اليها ،ولكنني اود ان ستأثر لنفسي بالالتفات من ذلك مكله الى ان ما اعتمد مادة لتقعيد القواعد لنحوية لم يكن يكفي لتقعيد قواعد اللغة العربية ، بل كان يكفي لتعقيد ما حصر فيه وله زماناً ومكاناً ،وان كان لي ان اقترض من افكار دي سوسير ما يمكن ان اوجهه هنا لتوضيح ما اريد ، فانني اقول : ان الكلام : وهو النشاط الفردي او السلوك الكلامي لفرد اومجموعة ، يمثله السلوك الكلامي لقبائل اية قائمة

من القوائم السابقة يقع عليها الاختيار ،واللغة :وهي المخـــزون الجمعـــي الذهني للافراد المتكلمين بلغة معينة تمثلها لغات القبائل العربية كلها ســواء اكانت موضع استشهاد ام لم تكن ،فضاقت بذلك قواعد الكلام عن ظواهــر اللغة ولكنها حملت او قل : حملت اسم " قواعد اللغة العربية " ،فكثر بذلــك الخروج عليها وابتكر لذلك مصطلحات : الشاذ والنادر والقليل ،والمطــرد في السماع والشاذ في القياس ،واضطرب بعضهم في ترتيب ذلــك وفــي كيفية الخروج منه ، فتارةً "لغات القبائل كلها حجة " [1]،واخـــرى لغــات القبائل القائمة الاولى اوالثانية او الثالثة هي الحجة ،وتــارة ثالثــة لانجــد التخريج لا في هذه ولا في تلك فيكون التخريج في (التأويل) الذي وســمه النحاة بقولهم :وهو اضعف الوجوه .

بعد التنبيه الى ما في هذه النقاط كلها ،وخروجاً منها مـــن غــير اطالة ، على الرغم مما فيها مـــن عمــق التــأثير علــى بنــاء القــاعدة النحوية،وايجاد الثقل الذي تنوء به ابواب النحو كلها ، مما يجعل البـــاحث في حيص بيص ، ويجعل الطالب في يأس التعلم ، ويترك المـــدرس فــي خيبة امل في امكان توصيل مادته الى من يجب عليه توصيلها اليهم .

قلت : .... وخروجاً من هذه النقاط بعد التنبيه الى عمق تأثيرهـــا في بناء القواعد النحوية ،وما يترتب على ذلك من حاجة الى اعمال الفكــر واعادة النظر على ضوء قانون : ان اللاحق يستصفي من السابق ويعتمــد عليه ، ففيه منه ما يستحق له عدم المعاداة او الرفض .

نخرج من هذا الى الوقوف مع نقطة اخرى مما يمكن ان يعد مـــن النقاط المنهجية الرئيسة في بناء النحو وقواعده ،وهي بناء الجملة العربيـــة

---

[1] الاقتراح : السيوطي ،ص٥٢.

التي هي الوحدة الرئيسة في التحليل اللغوي عند العلماء العرب وغير العرب ،القدماء والمحدثين مع ما بينهم من تباين في الاعتماد على نقطة يبدأون منها ، اهي الفونيم ام المورفيم ام هي الجملة كلها ، مما ترتب عليه نشأة مدارس تربوية اولغوية تحليلية كالمدرسة التحليلية والمدرسة التركيبية، او مدرسة المكونات الرئيسية ، اوالمدرسة الوظيفية ، او التوليدية التحويلية او غيرها .

فقد بني تفسير اقامة الجملة العربية على عدد من العناصر يردها النحاة عادة الى الحركة الاعرابية وكيفية تخريجها ، فيردون التأويل والتعليل واستصحاب الحال وغيرها الى النظرية المتكاملة عندهم ، ومع ما قلناه وما يمكن ان يقال في " النظرية المتكاملة " الوحيدة لتفسير الحركة الاعرابية وهي نظرية العامل نقول : بنيت الجملة على فكرة الاسناد بين الفعل والاسم اوز بين الاسم والاسم ، الاسم في ذلك كله هو الاساس لانه الاقوى ، ذلك عند النحاة الذين قسموا التركيب الى اسمي وفعلي ،والاسم في الفعلي هو الاساس في الاسناد كما انه الاساس في التركيب الاسمي،وكذلك عند البلاغيين الذين قسموا التركيب الى انشائي وخبري .

يقول ابو علي [1] :" الكلام يتألف من ثلاثة اشياء : اسم وفعل وحرف ، فما جاز الاخبار عنه من هذه الكلم فهو اسم ، ومثال الاخبار عنه قولنا : عبد الله مقبل ، قام بكر ،فمقبل خبر عن عبد الله ، وقام خبر عن بكر " ،ويقول سيبويه [2] : واعلم ان بعض الكلام اثقل من بعض،فالافعال اثقل من الاسماء لان الاسماء هي الاولى ،وهي اشد تمكناً ... وانما هي

---

[1] الجرجاني المقتصد ،١/٦٨-٦٩.

[2] الكتاب ١/١٢.

الافعال من الاسماء ، الاترى ان الفعل لابد له من الاسم ،والا لـــم يكـــن كلاماً ، والاسم قد يستغني عن الفعل .

وعلى الرغم من اختلاف معيار الزجاجي – وهو فيلسوف النحـــو ومنطقيه في ماارى ،– في الخفة والثقل السابقين عند ســـيبويه ، الا انـــه يلتقي معه في النتيجة ، يقول الزجاجي [1]:" انما خف الاسم لانه لايـدل الا على المسمى الذي تحته ،وثقل الفعل لدلالتـــه علـــى الفـــاعل والمفعـــول والمفعولين والثلاثة والمصدر ،والظرفين من الزمان والمكان ومـــا اشـــبه ذلك".

سيطرت فكرة الاســـناد علـــى اذهـــان النحـــاة ســـيطرة حقيقـــة خلفية،فاخذت توجه تفكير العلماء في تصنيف الجملة في اسميتها او فعليتها او خبريتها او انشائيتها ،وكذلك في تصنيف الابواب النحوية وتقسيمها الى عمدة وفضلات ، فالعمدة ما به يتم الاسناد لا مايتم بعه المعنى ، والفضلـــة مازاد على تحقيق طرفي الاسناد ، فكان بذلك الفعل والفاعل في حقل ما به يتحقق الاسناد وخرج بذلك ايضا المفعول او المفاعيل مع ان المعنى لايتـــم الا به او بها ، هذا فضلا عن تعارض هذا مع التنظير الذي يرتضيه النحاة في ان الاسناد يحقق قيام الجملة ،والجملة عندهم تحمـــل معنـــى يحســـن السكوت عليه ، فوقع التعارض بين التنظير والتطبيق مما ترتب عليه خطأ تصنيف بعض الابواب في النحو ، او قل ترتب عليه خلط عجيب في كتب النحو بين مستويين من مستويات البحث اللغـــوي : " الـــتركيب syntax والدلالة semantics وكان لذلك مضاعفاته .

---

[1] الايضاح،ص١٠٠-١٠١.

كنت اعتزم التوقف عند هذا الحد من الاشارة الى اهميـــة فكـرة الاسناد في الجملة العربية والى مدى تأثير التعارض فيها تنظيراً وتطبيقـاً في بناء القاعدة النحوية واثقال النحو بما لايفيد المعنى ولايحتاجه المنشـئ المبدع ،وان نظرة متأنية او سريعة الى الابواب النحوية التاليـة ، علـى سبيل المثال وليس الاستقراء ،والى الخلافات النحوية فيها بين البصريين والكوفيين تبين ما ارمت ان المح اليـه ، والابـواب هـي : بـاب نعـم وبئس،باب التعجب ،باب الاغراء ،باب التحذير ، باب الاستغاثة ، بـاب الندبة ، الابواب التي فيها اسم مرفوع بعد اداة من غير ذكر الاسم الاخر ، كما في الاسم المرفوع بعد لو ، وبعد لو لا او لوما ، وبعد الظرف حيـث ،وبعد الاداة اما ، مما جبر النحاة على مخالفات كثيرة ينقض فيـها رأي رأيا والرأيان يحتاجان لى ما ينقضهما ، ويكفي ان ننظر في بـاب نعـم وبئس وافتقار اللفظين الرئيسين فيه الى انطباق حد الاسم عليهما ، وهو ما دل على مسمى كما يقول سيبويه[1] وكذا رفضهما الخضوع الى حد الفعـل وهو الدلالة على حدث وزمن ،كما يقول سيبويه [2] ايضاً ،وما يقال فـي هذا الباب يقال بوضوح اكبر في صيغتي باب التعجب ، اما ما يقال فـي الاغراء والتحذير فمختلف ، فقد اقتضى الامر تحقيق فكرة الاسناد وتفسير حالة اعرابية يحمل الاسم المذكور حركتها الاعرابية اقتضى تقدير فعـل ، يذكر ابن يعيش ان ذكره في بعض الصيغ واجبة حذف العامل ، انـه لـو ذكر لخرجت الجملة من معناها الى معنى اخر ،او من بابها الى باب اخـر ،ولعل في النظرة الى تقدير مسند اليه او مسند وجوبا بعد لولا او لومـا او بعد الاسم بعدها تبين مدى تأثير هذه الفكرة (فكرة الاسناد) في بناء القاعدة

---

[1] الكتاب ،١٢/١.

[2] السابق .

النحوية [٣] ، فعلى الرغم من ان العلماء يعدون هذه الادوات مـــن ادوات الشرط ، والشرط باب خاص بالجملة الفعلية ، ينصون فيه على ان الشرط لايكون اصلاً في الجملة الاسمية ، الا انهم يعربون الاسم بعد هذه الادوات (وهي الشرط) : مسند اليه لمسند محذوف وجوبا تقديره (موجود) اومايسد مسدها ،او هي عند اهل الكوفة فاعل لفعل محذوف تقديره (ثبت) ،وفي كل من الضعف والتأويل ما لايخفى على كثيرين .

ولو سلمنا بدلالة هذه الادوات على الشرط او انتمائها اليه مع لـولا ولو ،وهو موضع جدل وتأويل لانقرهما ، فلست ادري كيـــف يمكـــن ان نلحق التركيب مع الاداة (اما) بالشرط ، وارى ان مـــن المفيـــد ان الفـــت الانتباه الى جانب من الحوار في توجيه النحاة هذا التركيب فيكـــون هنـــا موجزاً لما سيرد مفصلاً بعد قليل ، فهي [١]نائبة عن اداة الشـــرط وفعـــل الشرط معاً بعد حذفهما ،وقيل : بل عن فعل الشرط فقط ،ويقول ابو حيـــان نولاً نأخذه رداً فهو ابلغ ما يمكن ان نقول في هذا المقام ، فتأمله ، يقول[٢] :" ما ذكر في معناه هو من حيث صلاحية التقديـــر ،ولاجـــائز ان يكـــون مرادفا له من حيث المعنى ،لان مفعولية الحرف مباينة لمفعوليـــة الاســـم والفعل ـــ فتستحيل المرادفة : ولان في يكن (وذلك فـــي الصيغـــة التـــي يقترحها سيبويه مرادفة لاما ، وهي (مهما يكن من شئ) ، ضميراً يعـــود على مهما وفي الجواب ضمير يعود على الشرط ، وذلك منتف في اما ".

---

[١] وسنفصل القول في هذا بعد قليل .

[٢] السيوطي الهمع ٤/٣٥٥.

[٣] السابق .

ثم يقول ابو حيان ايضاً[٣]: " وقال بعض اصحابنا : لو كانت شرطاً لكان ما بعدها متوقفا عليها ،وانت تقول : اما عِلماً فعالمٌ فهو عالم ذكرته ،بخلاف: ان قام زيد قام عمرو ، فقيام عمرو متوقف على قيام زيد".

وقال الهروي [١]:"... وهي اخبار ولا يليها الا الاسم ،وتدخل على الابتداء ، وهي متضمنة معنى الجزاء ولابد لها من جواب بالفاء لان فيها معنى الجزاء ويرتفع ما بعدها بالابتداء اذا لم يقع عليه فعل كقولك : اما زيد فمنطلق ،زيد ابتداء ومنطلق خبره ، فادخلت الفاء لجواب اما ، لان فيها معنى الجزاء كانك قلت : زيد مهما يكن من امره فمنطلق " ،ونقول : انما الامر على غير ذلك ، فقد ادخل عليها معنى الجزاء ، او اقحمت عليه لتتضمنه لان في جملتها الفاء ، ولا مسوغ لوجودها ، فوجب ان نضمنها معنى الجزاء ، قبلت ذلك ام رفضته ، يعبر عن ذلك ابن هشام [٢] في حوار ظريف جميل ، يقول : " ... ولو كانت الفاء للعطف لم تدخل على الخبر ، اذ لايعطف الخبر على مبتدئه ،ولو كانت زائدة لصح الاستغناء عنها ، ولما لم يصح ذلك وقد امتنع كونهما للعطف تعين انها فاء الجزاء " ،وهنا نقول : كيف يكون معنى النص الادبي اذا كان توجيه التراكيب فيه باقحامها على الحكم :" تضمن معنى ..." .

---

[٣] السابق .

[١] الازهية ص١٥٣.

[٢] مغني اللبيب ٨٠ .

وسنقدم هنا عرضاً مفصلاً للتركيب الجملـــي مـــع هـــذه الادوات (لو ، لولا ، لوما) وتعدد اراء العلماء فيها مع اختلافاتهم فـــي وجـــهات نظرهم ، فنرى ان هذه الاراء تمثل قاعدة يمكن ان يبني عليـــها البـــاحث لبيان ان الجري وراء الحركة الاعرابية من غير اهتمام كبـــير بـــالمعنى يؤدي الى عناية بالجسد من غير الروح ، ولانها يمكن ان تضرب مثلا لما نرمي اليه من احتكام النحو الى المبني اكثر من احتكامه الى المعنى .

(امَّا)

حرف شرط وتفصيل وتوكيد ، هذا ما ذهب اليه النحاة في مصنفاتهم النحوية ، يقول ابن السراج [1]:" لانها انما تدخل في الكلام تتبع شيئاً بشئ ،وتعلق ما دخلت عليه من الكلام بما قبله " ،وقد استدل النحاة على شرطية (اما) لزوم الفاء الرابطة . يقول ابن هشام [2]:"وهو حرف شرط وتفصل وتوكيد : اما انها شرط فيدل لها لزوم الفاء بعدها ، نحو " فامَّا الذين امنوا فيعلمون انه الحق من ربهم ، واما الذين كفروا فيقولون .. "[3]" اما صاحب الكتاب [4] فقد عدها من حروف الابتداء ،وانها تصرف الكلام الى الابتداء حيث قال :" فان قلت : لقيت زيداً ،واما عمرو فقد ،ررت به ،ولقيت زيداً واذا عبد الله يضربه عمرو، فالرفع الافي قول من قال ، زيداً رأيته ،وزيدا مررت به لان اما واذا يقطع بهما الكلام وهما من حروف الابتداء يصرفان الكلام الى الابتداء الى ان يدخل عليها ما ينصب، ولايحمل بواحد منهما اخر على اول الكلام كما يحمل بثم والفاء ، الا ترى انهم قرأوا "واما ثمود فهديناهم "[5] وقبله نصب ،وذلك لانها تصرف الكلام الى الابتداء ،الا ان يوقع بعدها فعل نحو اما زيداً فضربت " .

وذكر الرماني وابن الشجري والعكبري انها قد تفيد معنى التفصيل ما اجمل قبل اضافة الى معنى الشرط نحو قولك : جاءني اخوتك فاما زيد

---

[1] الأصول في النحو: ١/٦٧ (تحقيق د.عبدالرحمن عبد الحسين الفتلي ،١٩٧٢،النجف الاشرف).

[2] مغني اللبيب عن كتب الاعاريب /لابن هشام الانصاري ١/٥٦ (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد/ المكتبة العصرية ، صيدا)

[3] سورة البقرة ، الاية ٢٦ .

[4] الكتاب ،١/٩٥(تحقيق وشرح عبدالسلام محمدهارون،دار الكتاب العلمية ، بيروت) .

[5] سورة فصلت ، الاية ١٧ .

فاكرمته واما عمرو فاهنته ، واما جعفر فاعرضت عنه ، ونحو قوله تعالى :" فأما اليتيم فلا تقهر واما السائل فلا تنهر واما بنعمة ربك فحدث " [1] ويبين ابن هشام ان التفصيل هو الغالب فيها وذكر ان التفصيل قد يترك استغناء بذكر احد القسمين ،نحو قوله تعالى :" يا ايها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وانزلنا اليكم نوراً مبينا فاما الذين امنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم الله في رحمة منه وفضل "[2] ، فاغنى هذا عن قوله :"واما الذين كفروا بالله فلهم كذا وكذا " . وذكر الزمخشري انها تعطي الكلام فضل توكيد ، تقول زيد ذاهب ، فاذا قصدت توكيد ذلك وانه لامحالة ذاهب ،وانه بصدد الذهاب قلت : اما زيد فذاهب .

وقد اوجب النحاة وجود هذه الفاء بعد امّا، ولذلك حكموا على ماورد في الشعر بدون هذه الفاء بأنه ضرورة من ضرورات الشعر ، وعلى ماورد في القران بأنه مأول على تقدير قول محذوف [3] كما في قوله تعالى :" فاما الذين اسودت وجوههم اكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب"[4].

حيث يرى جمهور النحاة ان التقدير هو :" فيقال لهم اكفرتم بعد ايمانكم " فحذف القول استغناء عنه بالقول فيتبعه الفاء ، ويرى بعضهم ان الفاء في جواب (اما) لاتحذف مطلقاً في غير ضرورة الشعر ولذلك يرون ان جواب (اما) في الاية هو قوله تعالى :" فذوقوا العذاب " وان ما بينهما اعتراض .

---

(1)

(2) سورة النساء ، الاية ١٧٤-١٧٥.

(3) الكافية في النحو – لابن الحاجب ج٢/٣٩٨(شرح الرضي- دار الكتب العلمية –بيروت).

(4) سورة ال عمران –الاية ١٠٦.

وبعد فان نظرة فاحصة لافادة (اما) معنى الشرط تدعونا الى التأمل قليلاً في هذا المعنى الذي افادته . فلو عدنا لمعنى الشرط كما عرفه صاحب اللسان [1] لوجدنا ان الشرط عنده يعني العلاقة والامارة ومنه اشراط الساعة أي علاماتها والشرط ما يوضع ليلتزم . وعند النحاة .. تعليق حصول امر لاخر بواسطة احدى ادوات الشرط . اما التركيب الشرطي كما اتفق عليه النحاة فهو وحدة نحوية دالة فيها طرفان الاول منهما يسمى فعل الشرط ، كونه علامة دالة على تحقق مضمون جوابه عند تحققه [2] والطرف الثاني الجزاء وسمي الجزاء بالجواب مجازاً – ووجهه انه شابه الجزاء من حيث كونه فعلاً مترتباً على فعل اخر فأشبه الفعل المترتب على فعل اخر ثواباً عليه او عقاباً الذي هو حقيقة الجزاء وشابه الجواب كونه لازماً على القول الاول فصار كالجواب الاتي بعد كلام السائل .اما وظيفة اداة الشرط فهي الربط بين الطرف الاول والثاني في التركيب الشرطي حيث تعلق الثاني تعلق السبب بالمسبب او المعلول بالعلة . ولو حاولنا تطبيق هذه المقاييس التي تشتمل على (اما) فاننا لانجد ذلك ممكناً . اما وجود الفاء فليست دليلاً كافياً لاثبات ان (اما) اداة شرط رابطة بين سبب ومسبب.

(لـو)

لو : حرف باتفاق النحاة يدل على تعليق فعل بفعل فيما مضى ، فيلزم من تقدير حصول شرطها حصول جوابها ،، وهي بذلك تعبر عن تعطل النتيجة بتعطل العلة . أي انها تعطل عن توقف الجواب على الشرط وتعبر عن امتناع وجود الشرط والمشروط لذلك سميت حرف امتناع

---

[1] لسان العرب– لابن منظور ، مادة شرط.

[2] شرح المفصل ، لابن يعيش /٤٧/٧– عالم الكتب –بيروت.

لامتناع ،ويلزم كون شرطها محكوماً بامتناعها اذ لو حصل شرطها لكان جواباً حاصلاً كذلك ، ولم تكن لو في هذه الحالة للتعليق بل للايجاب فتخرج عن معناها ، لان الثابت الحاصل لايعلق ، واما جوابها فلايلزم كونه ممتنعاً على كل تقدير ، لانه قد يكون ثابتاً مع امتناع الشرط غير ان الاكثر ان يكون ممتنعاً ، وحاصله كما يقول الاشموني [1] انها تقتضي امتناع شرطها دائماً ، ثم ان لم يكن لجوابها سبب غيره لزم امتناعه نحو قوله تعالى :" ولو شئنا رفعنا بها " [2] وكقولك : لو كانت الشمس طالعة لكان النهار موجوداً والا لم يلزم نحو : لو كانت الشمس طالعة لكان الضوء موجوداً [3] وايا ما كان الامر فالتعليق حاصل بين الشرط والجواب ، وكلاهما ماض ، وهذه هي الصورة الاولى لهذه الاداة : (لو+فعل ماض وفاعله+ فعل ماض وفاعله) والثانية ان يليها مضارع ، ولان الصورة الاولى اغلب واكثر وروداً لم يجزم بـ(لو) يقول الاشموني :"ولغلبة الدخول لو على الماضي لم تجزم،ولواريد بها معنى ان الشرطية وزعم بعضهم ان الجزم مطرد على لغة ، واجازه جماعة في الشعر ، منهم ابن الشجري كقوله :

نامت فؤادك لو يحزنك ما صنعت احدى نساء بني ذهل بن شيبان [4]

ومن خصائص الجملة بـ (لو) دخول اللام على جوابها وعندئذ يعتبرها بعض النحاة مجرد ربط بين الشرط والجواب يأتي مؤكداً

---

[1] مغني اللبيب لابن هشام /ج١/٢٥٥ ومابعدها .

[2] سورة الاعراف، الاية ١٧٦.

[3] الاشموني /شرح الاشموني على الفية ابن مالك –ج٤/٣٦/دار احياء الكتب العربية /القاهرة .

[4] الاشموني /ج٤/٤٢-٤٣.

تعاقدهما، ويعدها اخرون لام قسم محذوف فاذا قلت :(لو جئتني لا كرمتك). فتقديره (والله لو جئتني لاكرمتك).[1]

ولا تدخل اللام في الجواب الا على الماضي دون المستقبل[2] اما استعمال (لو) في العربية فيرد على وجوه بينهما فوارق دقيقة ذكر ابن هشام في مغنيه خمسة معان هي :

١-ورودها شرطية تعقد السببية بالمسببية فتفيد الشرط بالزمن الماضي وتفيد الامتناع ،ويرى ابن هشام انها لاتفيد الشرط الا اذا كانت في صدر الجملة المتلازمة واقتضت جوابا (لو جاء لاكرمته) [3] .

ويقول ابن مالك هي حرف شرط يقتضي امتناع ما يليه واستلزامه لتاليه[4] وتسمى امتناعية شرطية وتدل على امرين في قوله تعالى :" ولو شئنا لرفعناه بها "[5].

(١) ان مشيئة الله لرفعه منتفية ، ورفعه منتفٍ ، اذ لاسبب لرفعه الا المشيئة .

(٢) استلزام مشيئة الرفع للرفع ، اذ المشيئة سبب ،والرفع سبب وهذا بخلاف : لو لم يخف الله يعصه ،اذ لايلزم من انتفاء (لم يخف) انتفاء (لم يعص) حتى يكون خاف وعصى ، لان انتفاء العصيان له سببان العقاب والاجلال وهو اعلى ، والمراد ان صهيباً لو قدر خلوه من الخوف لم يعص للاجلال ، كيف والخوف حاصل ،ومن فسروها

---

[1] شرح المفصل ،ابن يعيش ٩/٢٢-٣٢.

[2] السابق.

[3] مغني اللبيب /١/٢٥٥.

[4] البرهان في علوم القران ج٤/٣٨٩ ،تعليق مصطفى عبد القادر عطار – دار الفكر .

[5] سورة الاعراف –الاية ٧٦.

بالامتناع اختلفوا فقال اكثرهم ان الجزاء امتنع الشرط، فامتنع الثاني وهو الرفع لامتناع الاول وهو المشيئة[1] .

وقال ابن الحاجب امتنع الاول لامتناع الثاني ، قالوا :لان امتناع الشرط لايستلزم امتناع الجزاء ،لجواز اقامة شرط اخر مقامه ،واما امتناع الجزاء فيستلزم امتناع الشرط مطلقا[2].

ثانياً: ترد لو الشرطية فتفيد الشرط في الزمن المستقبل الا انها لاتجزم نحو قوله تعالى :" وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم " [3].

ثالثاً : ان تكون حرفاً مصدرياً بمنزلة (ان) الا انها لاتنصب ، واكثر وقوعها كذلك بعد ود يود ، (ودوا لو تدهن فيدهنون)[4] على ان هذا المعنى لم يثبته جل النحاة .

رابعاً :ان تكون للتمني (لو تأتين فتحدثني) واختلف النحاة فيها فذهب بعضهم الى انها قسم برأسه لاتحتاج الى جواب ،وقال بعضهم هي لو الشرطية اشربت معنى التمني .[5]

خامساً : ان تكون للعرض نحو : (لوتنزل عندنا فتصيب خيراً).

ويذهب النحاة الى اشتراط اقترانها بالفعل مباشرة ، فاذا عاكس الاستعمال تقنينهم ارضخوه الى القاعدة بالتأويل والاضمار كما في الاية

---

[1] البرهان في علوم القران ،الزركشي ج٤/ ٣٩٠.

[2] السابق .

[3] سورة النساء –الاية ٩.

[4] سورة القلم –الاية ٩.

[5] مغني اللبيب –ابن هشام ٢٥٩/١.

:" قل لو انتم تملكون خزائن رحمة ربي اذاً لأمستكم خشـــية الانفـــاق "[1] (الاسراء،١٠٠) شأنهم في ذلك شأن تعاملهم مع ان كلما الحقـــت بالاســـم : " ان امرؤ هلك ليس له ولد وله اخت فلها نصف ماترك "[2] .

اما جواب (لو) فيذكر النحاة انه اما ان يكون مضارعاً منفياً بلم او ماضياً مثبتا او منفياً بما ، والغالب على المثبت دخول اللام عليه والغـــالب على المنفي تجرده منها ،وقد ورد جواب (لو) الماضي مقرونا بقد وهـــو غريب(ونظيره في الشذوذ اقتران جواب لو لا بها) وحيث ورد جواب لو جملة اسمية امره بعضهم وتأوله الاخرون جواباً لقسم مقدر كما في (ولـــو انهم امنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير) [3].

وقد قدر بعض النحاة الجواب فيه جمل فعلية ، ومنهم من يرى في مثل هذه الاية ان لا جواب لها في اللفظ ولكنه في المعنـــى ،ويقـــدر بـــــ (لأثيبوا) وجعل قوله (لمثوبة) دالاً عليه وعلى هذا الاخفش[4] .

وينسب ابن هشام الى الزمخشري القول بجواز وقوع جواب (لـــو) جملة اسمية مقرونة باللام او بالفاء ،كالذي في قوله تعالى سالف الذكـــــر وكقول الشاعر :

قالت سلامة : لم يكن لك عادة ان تترك الاعداء حتى تُعذرا
لو كان قتلٌ يا سلام فراحة لكن فررت مخافة ان اوسرا

---

[1] شرح المفصل /لابن يعيش ٩/٩ .

[2] النساء –الاية ١٧٦.

[3] سورة البقرة –الاية ١٠٣.

[4] معاني القران- الاخفش ج١/١٤٢.

ويرى ابن هشام ان الاولى في مثل ذلك ان تقدر الجواب محذوفاً ، او ان يقدر (لو) بمنزلة (ليت) في افادة التمني[1] .

ولان البنية الاساسية لـ(لو) ان يليها فعل ، فقد فسر النحاة الاسم الاول المرفوع الواقع بعدها على انه فاعل لفعل محذوف يفسره المذكور بعده ،وان كان الكوفيون يرون انه فاعل مقدم على فعله .

واما اذا وقع بعدها المركب الاسمي (المصدر المؤول من ان واسمها وخبرها) فانهم يختلفون فيرى بعضهم ان الاسم المرفوع بعدها يكون فاعلاً لفعل محذوف ،ويرى اخرون ان المصدر المؤول من ان واسمها وخبرها الواقع بعدها- وهو كثير – مبتدأ غير محتاج الى خبر لاشتمال صلتها على المسند والمسند اليه ، وقيل الخبر محذوف ويقدر مقدما بـ(ثابت) ،وقيل يقدر مؤخراً ،واما سيبويه والبصريون فانهم يقولون بتقدير المصدر المؤول مبتدأ ،ويرون ان هناك صورة اساسية اخرى يمكن ان ينتمي اليها هذا التركيب الظاهري ،ولكن كان مقتضى هذا ان يكون الاسم بعد لو يفسر كذلك على انه مبتدأ ، ففي مثل (لوغيرك قالها يا ابا عبيدة) وفي وقوله تعالى :" قل لو انتم تملكون خزائن رحمة ربي "[2].

كان مقتضى قول البصريين ان يكون (غيرك) و (انتم) مبتدأ وما بعده خبر ، ولذلك قالوا في قول عدي بن زيد :

لو بغير الماء حلقي شرق كنت كالغصان بالماء اعتصاري

---

[1] مغني اللبيب لابن هشام ج٢/١.

[2] سورة الاسراء –الاية ١٠٠.

قالوا اقوالا مختلفة مؤداها ان الجملة الاسمية لاتلي (لـــو) وعلـــى فرض وقوعها بعدها يكون ذلك شذوذاً ، لان (لو مثل (ان) الشرطية فـــي انها لايليها الافعل او معمول فعل مضمر يفسره فعل ظاهر بعد الاسم)[1] واما ايلاء لو المصدر المؤول فقد اختلفوا فيه على النحو الســـابق مـــع ان ذلك كثير جداً على حد قولهم ،وكثرته على هذا النحو تجعله اصلاً او بنيـــة اساسية ومن ذلك قوله تعالى :" ولو انهم امنوا واتقوا ربهم لمثوبة من عنـــد الله خير "[2] .

وعلى ذلك فلاحاجة للتفريق بين استعمالين ينتميان الـــى نمـــوذج واحد ويمكننا بناء على ذلك القول بأن الاسم المرفوع سواء اكان مصـــدراً مؤولا ام غيره يجوز في تفسير كل منهما ما يجوز في الاخر .

ويبدو واضحاً ان اقفاء (لو) الجملة الاسمية -وهو ما ذهـــب اليـــه سيبويه والبصريون في اعتبارهم المصدر المؤول من ان واسمها وخبرهـــا كذلك امر يحتاج الى تدبر. ولان هناك اداتين اخريـــن يـــرى النحـــاة ان اصلهما (لو) زيدت عليهما (لا) او(ما) فصارتا (لولا)و(لوما) ، لايليهما الا الجملة الامسية ، على خلاف كل ادوات الشرط ،وان كـــان يلـــزم حـــذف الخبر من جملة شرطها اذا كان كونا عاما وجوابهما مثل جواب (لو) تماماً مثل قوله تعالى :" لولا انتم لكنا مؤمنين"[3] وذلك اذا كانت هاتان الاداتـــان دالتين على امتناع شئ لوجود غيره ، أي اذا ربطتا امتناع شـــئ بوجـــود غيره ربطاً لازماً بينهما اما اذا كانتا للتحضيض فلهما استعمال اخر .

---

[1] شرح الاشموني -٤/٣٩.

[2] سورة البقرة -الاية ١٠٣.

[3] سورة سبأ -الاية ٣١.

(لـــولا)

تعد لولا عند النحاة من ادوات الشرط ،وتخرج بحسب السياق الـى دلالات منها :

اولاً : الامتناع ، ذلك انها في بنيتها متولدة عن نفي (لـــو) التـــي هي- كما سبق- حرف امتناع لامتناع ،، فتكون لولا اذن حرف امتنـــاع لوجود أي امتناع الطرف الثاني من القضية وهوالجواب ، لوجود الطـرف الاول منها وهو الشرط ، ويتميز استعمال (لولا) في هذا السياق بدخولـــها على الاسم فيكون التركيب الشرطي من نوع (اسمية -فعلية) .

يقول المالقي (الصحيح ان تفسيرها بحسب الجمل التي تدخل عليها فان كانت الجملتان بعدها موجبتين ، فهي حرف امتناع لوجوب ، نحـــو : لولا زيد لاحسنت اليك ، فالاحسان امتنع لوجود زيد وان كـــانت منفيتيـــن فحرف وجوب لامتناع نحو لولا عُدمُ زيد لاحسنت اليك)[1].

ثانيا: العرض والتحضيض، وتختص عندئذ بالمضارع او ما فـــي تأويله نحو قوله تعالى :" لولا تستغفرون الله "[2].

ثالثاً: التوبيخ والتنديم ، نحو (لولا جاؤوا عليه باربعة شهداء) .[3]

رابعاً: ان تكون للنفي[4] ، نحو (فلولا كانت قرية امنت)[5]أي فمـا امنت قرية ، أي اهلها عند مجئ العذاب فنفعها ايمانها والجمهور لم تثبتـوا

---

[1] .صف المباني في شرح حروف المعاني –المالقي ٢٩٣ ،تحقيق احمد الخراط .

[2] سورة النمل –الاية ٤٦.

[3] سورة النور –الاية ١٣.

[4] الازهية للهروي ص١١٦،ومعجم الادوات النحوية واعرابها –السيوطي ص١٧٢.

[5] سورة يونس –الاية ٩٨.

ذلك ، وقالوا المراد في الاية التوبيخ على ترك الايمان قبل مجئ العـــذاب ،ويؤيده قراءة أُبي : (فهلا) والاستثناء حينئذ منقطع [1].

خامسا: ذكر الهروي ان (لولا) قد تفيد الاستفهام [2]نحو قوله تعالى :" لولا اخرتني "[3] وقوله :" لولا انزل عليه ملك" [4].

خبر المبتدأ بعد لولا

قالوا : (لولا) حرف امتناع لوجود ، ولذا تسمى (لولا) الامتناعية ، تقول لولا عبد الله لاكرمتك ، امتنع وقوع الاكرام لوجود عبد الله وهي بهذا المعنى من ادوات الشرط غير الجازمة ولاتكون جملتها الا اسمية ولايكون جوابها الا فعلياً .

فلما كانت جملتها اسمية فهي من مبتدأ وخـــبر ، المبتـــدأ الاســـم المذكور بعدها والخبر وقع فيه خلاف فقد ذهب البصريون الى انه محذوف وجوبا تقديره (موجود) ،وما ورد منه مذكوراً فهو لحن كالذي فـــي بيـــت المعري (فلولا الغمد يمسكه لسالا).

وقيده بعضهم كالرماني وابن الشجري والشلوبين ، وتبعهم في ذلك ابن مالك ، بما اذا كان الخبر كونا مطلقا ،فلو اريد كون بعينه فلادل عليه ،ولو حذف لم يجز حذفه نحو : لولا زيد سالمنا ما سلم [5]، ومنـــه قولـــه (ﷺ) (لولا قومك حديثو عهد بكفر لاسست البيت على قواعد ابراهيـــ). وان كان عليه دليل جاز الحذف والاثبات ، تقول : لولا اصحـــاب علـــ

---

[1] معجم الادوات النحوية واعرابها –السيوطي ،ص١٧٣.

[2] المرجع السابق .

[3] المنافقون –الاية ١٠.

[4] سورة الانعام –الاية ٩.

[5] مغني اللبيب ،ابن هشام ج١/٢٧٣.

ساعدوه ما نجا ، وجعلوا من هذا النوع بيت المعري السابق واختار هـــذا الرأي صاحب الهمع[1] .

وذهب قوم الى ان الخبر بعد(لولا) غير محذوف ، وانه الجـــواب ومن هؤلاء :ابن الطراوة [2]ورده ابن هشام لعدم وجود الرابط ، وذهـــب الكوفيون عدا الكسائي والفراء الى ان الاسم بعد (لولا) مرفوع بها لنيابتـها مناب الفعل ، والتقدير :لولا يمنع زيد او لم يوجد او لم يحضر .[3]

وذهب الفراء الى ان (لولا) عاملة ،وهي الرافعة للاسم بعدهـــا ، لاختصاصها بالاسماء ، كسائر العوامل المختصة [4].

وذهب الكسائي : الى ان الاسم بعد(لولا) ليس مبتدأ ،ولا مرفوعـــا بها بل هوفاعل لفعل محذوف تقديره (ثبت) او نحوه واستدل بظهوره فـــي قوله : (فقلت بلى لولا ينازعني شغلي) ولم يستبعده الرضي[5] .

اما ان الخبر بعد لولا ، غير مضمر وانه الجواب فباطل لان الخبر يجب ان يطابق المبتدأ ان كان مفرداً ،ولن يعود منه عائد عليـــه ان كـــان جملة ،وهنا لاعائد يربط الجواب بالمبتدأ بعد لولا ، وبهذا يبطل قول مـــن قال به .

واما ان الاسم مرفوع بها فباطل ايضاً من حيث ان (لـــولا) غـــير مختصة بالاسماء ، كما زعم الفراء ، فهي تدخل على الافعال فـــي نحـــو

---

[1] همع الهوامع ،السيوطي ٤١/١.

[2] مغني اللبيب ،ابن هشام ٢٧٤/١.

[3] شرح المفصل ،ابن يعيش ٩٧/١،ومغني اللبيب ٢٧٤/١.

[4] الكافية في النحو ،ابن الحاجب ١٠٤/١.

[5] المرجع السابق .

(لولا اخرتني الى اجل قريب)[1] هذا من جهة ومن جهة اخرى فانها لو كانت عاملة لكان الجر اولى بها من الرفع ، اذا كانت مختصة.

واما ان مابعدها فاعل مرفوع بها لنيابتها مناب الفعل ، او انه مرفوع بفعل مقدر بعدها فباطل كذلك ، لان ما ادعوه من انها (لو) الشرطية + (لا) النافية فغير وارد : لانها لو كانت لو الشرطية الداخلة على الفعل كما في (لو ذات سوار لطمتني...) لاحتاجت الى مفسر ، وفي مثل .. لولا زيد لهلكت ، لا مفسر ولايجوز ان يقال : ان الفعل المذكور في الجواب هو المفسر ، لان شرط المفسر ان يكون من لفظ ما يفسره ، وهكذا يمكن تحقيقه في (لولا زيد لهلكت) لانه ينقض المعنى ، فلو قلت لولا هلك زيد ، دل على انه قد هلك ، في حين ان المعنى في (لولا زيد لهلكت) امتناع هلاك المتكلم بسبب وجود زيد لاهلاك زيد ، وعليه فأن (لولا) كلمة واحدة لاكلمتين [2].

ولاحجة للكسائي في قول الشاعر:

فقلت بلى لولا ينازعني شغلي .

لاحتمال ان تكون (لولا) من قبيل التحضيضية التي تدخل على الافعال وتختص بها .

بقي ان يكون ما بعد (لولا) مبتدأ مرفوعاً ،وخبره محذوف والجملة الفعلية المذكورة هي جواب لولا فالتركيب جملتان :

اسمية : زيد موجود وفعلية :هلك عمرو .

---

[1] المرجع السابق .

[2] المقتضب ٣/٧٦.

دخلت عليها لولا وربطت الثانية بـــالاولى ، صارتـــا كالجملـــة الواحدة واستغني عن خبر زيد لكثرة الاستعمال[1] حتى رفـــض ظـــهوره ولايجوز استعماله عند ابن يعيش [2].

وليس حذف الخبر على اطلاقه كما ذهب اليه البصريون ، بل انـــه كما قيده الرماني وابن الشجري والشلوبين [3]يجب اذا كان الخبر كونا عاماً او لايتعلق بذكر غرض كقولك : لولا زيد لهلك عمرو ، واذا كـــان كونـــا خاصاً لادليل عليه لو حذف لوجب ذكره لان الغرض يتعلق بذكر كما لـــو قلت : لولا زيد عتب لما زرته ، ومنه قولهم : لولا زيد سالمنا ما سلم .

وقوله (عليه السلام): (لولا قومك حديثو عـــهد ...) ،ولا عـــبره بـــأن الحديث ربما يكون مروياً بالمعنى لانه قد روي (لولا حدثان...)[4] ثم ان سيبويه والمبرد لم ينصا صراحة على وجوب الحذف في خبر لولا كعنتها ، في التعبير عن مثل ذلك (باللازم اضماره) بل انه عندما يحذف خـــبره يسد الجواب مسده [5].

ذكرت قبل قليل بأنني كنت اعتزم التوقف عند هـــذا الحـــد من الاشارة الى فكرة الاسناد ومدى تأثيرها في بناء القاعدة النحوية ، ولكـــن الرغبة في توضيح هذا التأثير دفعني الى ذكر بعض الابواب التي لا اسناد فيها في حقيقة الامر ، بل ان الحاقها بما يقتضي الاسناد –بالفعلية بخاصـــة وبالاسمية من حيث البحث عن مسند – يحتاج الى اعادة نظر لما يـــترتب

---

[1] الكتاب ج١/١٢٩.

[2] شرح المفصل /ابن يعيش ١/٩٥.

[3] المغني ج١/٢٧٤ ،الهمع ١/٤٢.

[4] الهمع ١/٤٢.

[5] الكتاب ١/١٢٩-المقتضب ٣/٧٦.

عليه من خلل في تحليل النصوص ،ونحن نعلم ان وحدة التحليل اللغـــوي هي الجملة ، فان وقع الخلل فيها ، انتقل هذا الى نتائج التحليل النصي .

وتلح علي الرغبة لطرح نقطة اخيرة في فكرة الاسناد فاشير الـــى ان فكرة الاسناد ذاتها من الافكار التي جرى فيها تغير صامت بين اللغويين والنحاة والبلاغيين ، فعسى ان ادفع بهذا تهمة يمكن ان توجه الى ما قلتُ ، فاقول : ان الدعوة لاعادة النظر في مناهج البحث اللغوي عند العرب قـــد كانت موضع تنفيذ عند علماء العرب القدماء من غير اثارة صراع مفتعـل غايته في كثير من الاحيان .

فانظر معي لترى الانتقال في الفكرة بين ما كنت عليه فـــي قـــول سيبويه ،وما نحن عليه الان ، يقول سيبويه[1]:(... فأمـــا المبنـــى علـــى الاسماء المبهمة فقولك : هذا عبد الله منطلقا ، وهؤلاء قومك منطلقين .... فهذا اسم مبتدأ يبنى عليه ما بعده وهو عبد الله ، ولم يكن ليكون هذا كلامـاً حتى يبنى عليه او يبنى على ما قبله ، فالمبتدأ مسند والمبني عليه مســـند اليه) ويقول في موضع اخر[2] : (... فالمبتدأ كل اسم ابتدئ ليبنى عليـــه كلام ، والمبني عليه رفع ، فالابتداء لايكون الا بمبني عليه ، فالمبتدأ الاول والمبني ما بعده عليه فهو مسند ومسند اليه) وقد كرر هذا في غير موضع من كتابه[3] ، وهذا مختلف عما هومستقر فـــي الاذهـــان ،يعـــبر عنـــه السكاكي[4] في حديثه عن الجملة : (زيد منطلق من انـــه يلـــزم مجـــرد القصد الى الاخبار ، او من نحو : منطلق بترك المسند اليه ، من انه يلـــزم

---

[1] الكتاب ٢/٧٨.

[2] السابق ٢/١٢٦.

[3] السابق ١/٢٣، ١/٨٠-٨١، ٢/١٢٧.

[4] مفتاح العلوم ص١٦١-١٦٢.

ان يكون المطلوب به وجه الاختصار مع افادة لطيفة مما يلوح بها مقامها ، وكذا اذا لفظ بالمسند اليه ، وهكذا اذا عرف او نكر او قيد او اطلق او قدم او اخر).

ولو كنت اسمح لنفسي بمزيد من الاستئذان لطلبت من القارئ مزيدا من الوقت للحديث عن عدد من العناصر التي اسهمت في تعقيد البحث اللغوي بتعقيد دراسة بناء الجملة ولناقشت عندئذ العامل والتعليل والتأويل واستصحاب الحال ، والعماد والفضلة ،والاختلاط غير العادي في البحث النحوي بين النظرة التركيبية للجملة والنظرة الدلالية لها ،او الوقوف عند المستوى التركيبي وحجب البحث في المستوى الدلالي ، او انعكاس المفهوم النظري او التنظيري لقانون (الاعراب فرع المعنى) انقلاباً تاماً بتأثير من تضييق عنق الثقافة العربية ردة فعل لمفاهيم فكرية فانبعجت كرش النحو تورماً لاسمنة شأنه في ذلك شأن فروع المعرفة في الثقافة العربية فلن استأذن لتوضيح أي مما سلف وسانتقل للحديث عن تصور سريع للغة مع قواعدها .

تمثل ابواب النحو الهيكل المعنوي الذهني المجرد في عقل الانسان ، وهذا يجعلنا نقترب كثيراً مما يذهب اليه تشومسكي ، العالم الامريكي في فكرته عن الكفاية [1] COMPATANCE ،وسنفترق عن طريقه في منهج التناول ، ويجعلنا ايضا نرفض ما يذهب اليه روجر فاولر[2] في رفض هذا المفهوم عند تشومسكي آخذاً بالمفهوم الحسي للقواعد النحوية ، فتبقى القواعد النحوية (في مانرى) او الابواب النحوية هنا صامتة في مرحلة من مراحل التفكير الفردي لدى المبدع او المتكلم وذلك قبل ان يخرجها

---

(1) انظر N. Chomsky, Aspect of the theoty of syntax,P.

(2) Roger Fowler , An Introduction to transformational syntax,London 1981. chapter 1 , P.

مجسدة في ممثلات صرفية (مورفيات وفونيمات) ، فيتم اتحاد بين الفونيم الحركي (دعنا نسمي هنا كما هو في العربية ، الحركة الاعرابية)، وهذه طاقة معرفية تقدمها اللغة لكل مبدع بها يكون على درجة من العلم باسس نحو اللغة وقواعدها ، وقد تكون كامنة في الذهن من غير ان يدرك هذا المبدع علمه بها ، فيكون التفاضل بين المبدعين :اولا : بما يضعونه من ممثلات صرفية في هذه الابواب وربطها بالمستوى المعجمي ، وهذا يحدد اطارها الدلالي الافقي لتلك الممثلات الصرفية ، وهذا يحدد مقدار الوضوح او الغموض في الفهم الكلي للمعنى الدلالي في وحدة التحليل اللغوي وهي الجملة ،ثم بالقدرة على الربط بين كل كلمة في الجملة ببؤرتها –وبؤرة الجملة الاسمية المبتدأ وبؤرة الجملة الفعلية الفعل– ، مع ملاحظة فكرة التلازم اللغوي بين بعض المتلازمات اللغوية التي تقف فيها الكلمات المتعددة تركيباً في موقع الكلمة الواحدة دلالة ، ثم الربط بين الجمل المتعددة في النص بالجملة البؤرة فيه فيتحدد بذلك النسيج النصي في دوائر دلالية حول بؤرة ، فاذا رفضت بعض الجمل الارتباط بالجملة البؤرة فان على المتلقي او محلل النص ان يبحث اما عن انحراف دلالي ، او عن خروج الى جملة بؤرة جديدة ،وعليه ان يجتهد في الربط بينها هي وما يدور حولها من نسيج من جهة وبين غيرها من انسجة النص حول بؤراته.

وثانيا: بقدرة المبدعين –غير المقصودة او غير الواعية غالبا– على تحريك الابواب النحوية مجسدة في الذهن ثم خارجة منه في الممثلات الصرفية ، وهنا اعود ثانية لاستأذن فاستعير المصطلحات الاربعة التي اوردها عبد القاهر الجرجاني فاحملها من الوظائف في عملية البناء الذهني –ربما– ما لم يكن الجرجاني يرمي اليه او يقصده ، ولكنه هو صاحب هذه الالفاظ التي كانت عنده كالمترادفات ان لم تكن حقا مترادفات : البناء

والتعليق والترتيب والنظم ، فنشير بالاول الى بناء الفكرة ذهنا ثم يتم تعلقها (وهنا يكون التعليق) في اتجاهين بالممثل الصرفي بابعاده المعجمية والاجتماعية والسياقية وحركته الاعرابية ... الخ وتعلق هذه كلها بموقعها في البناء الذهني السابق ، فتهيأ الجملة بذلك وقد حققت ذهنيا ما يمكن ان نسميه (خط سلامة المبنى) ، امتلأ فيه الباب النحوي الذهني مثلا : الفعل ، الفاعل ، المفعول به، او له ، او فيه ... او المبتدأ او الخبر او الحال او ... الخ بممثل صرفي ثم اقترن هذا الممثل الصرفي بالحركة الاعرابية المعطاة للباب النحوي استقراء مما نطقت به العرب سليقة- كما ذكرنا في غير موضع – يحكم ذلك كله قياس لغوي على ما له نظير في كلامهم مما يحتج به .

ثم يتم التركيب بين المباني الصرفية (وهي الان أي في وضعها هذا ابواب نحوية وقيم دلالية او على الاقل هي قيم معجمية) ، او يتم الترتيب بين الممثلات الصرفية في الذهن بحسب اهمية ما تعلقت به من افكار يتم بناء عليها تحريك الباب النحوي الذي جاءت تمثله في الذهن ، يقول عبد القاهر الجرجاني [1]: (اعلم ان ماترى انه لابد منه من ترتيب الالفاظ وتواليها على النظم ليس هو الذي طلبته بالفكر ولكن شئ يقع بسبب الاول ضرورة ، حيث ان الالفاظ اذا كانت اوعية للمعاني فانها لامحالة تتبع المعاني في مواقعها ، فاذا وجب لمعنى ان يكون اولا في النفس وجب اللفظ الدال عليه ان يكون مثله اولا في النطق ...) .

ويقول في موضع اخر[2] : (... وذلك قولهم : انه يرتب المعاني في نفسه وينزلها ويبني بعضها على بعض كما يقولون يرتب الفروع على

---

[1] دلائل الاعجاز ،ص٤٣.

[2] السابق ص٤٣.

الاصول ، ويتبع المعنى المعنى ، يلحق النظير بالنظير) ولعل اوضح هذه النصوص واكثرها دلالة على ما نذهب اليه ما جاء في قوله [1]: (انه لا يتصور ان نعرف للفظ موضعاً من غير ان نعرف معناه ، ولا ان نتوخى في الالفاظ من حيث هي الفاظ ترتيبا ونظما ،وانك تتوخى الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك ، فاذا ما تم لك ذلك اتبعتها الالفاظ وقفوت بها اثارها ،وانك اذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج الى ان تستأنف فكرا في ترتيب الالفاظ ، بل تجدها تترتب لك بحكم انها خدم للمعاني وتابعة لها ولاحقة بها ، وان العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الالفاظ الدالة عليها في النظم .

ثم يتم اخراج هذه المباني في نسق منظم يسمى النظم ، به نستطيع رؤية الفروق بين :ذكرى منزل قفا من نبكي .

و: قفا نبكي من ذكرى حبيب ومنزل ....

وبحسب القدرة الفردية عند المبدع في استخدام العلاقات بين هذه المراحل الاربع بغير توتر – كما يرى دي سوسير – فانه يستطيع ان يكون لنفسه اسلوبا يعرف به من ناحية ، ويتمكن ايضا من مخاطبة روح اللغة في ادبها والالتقاء بهذا الادب مع الروح الجماعية لادب جماعة ادبية ، بقطع النظر عن سعة دائرة هذه الجماعة ، ويستطيع كذلك اثارة عمق المعنى وتشعبه في مخزون السامع او الملتقي ، وذلك باعادته الى عمق احساسه بتاريخ الفكرة وتشعب معاني الالفاظ المعجمية منها والدوائر الدلالية الاخرى التي خرجت اليها هذه المباني في مسيرتها الدلالية ، وبمجموع هذه الدوائر يتكون سطوع الاحساس بقيمة الدال اللغوي على

---

[1] السابق ص٤٤.

المدول الذهني وارتباطه بدوائره الحضارية ، فيتحقق النجـــاح وخـــروج المبدع الى ابعاد معينة في ادب مجتمعه ، او يبقى حبيساً في دائرة ذاتـــه ، فيقدم النحو بذلك لمستعمل اللغة- الاديب بخاصة – صلابة الاطر اللغوية ، في حين يقدم مستعمل اللغة بالنحو خصائص اللغة والاحساس بجمال هـــذه الخصائص ،يضاف الى ذلك في الشعر عناصر جمالية تزيد الفن القولـــي جمالا ، كجمال تناسق الالوان في الرسم او لمسة اخيرة من فنان نحات لما تم نحته ، ومن تلك : الانسجام الصوتي في المباني الصرفية وفي الجمل ، والايقاعية ،الاختيارات الصرفية ،الحركة الداخلية في النص ، والتناســـق بين الكم المقطعي لمقاطع النص ،والنبر والتنغيم ، وكيفية الترابط بين جمل النص ، تارة برابط واجب الوجود او جائزه ، واجادة اســـتعمال الوظيفـــة الرمزية للفظة فبذا يتحقق الكشف عن جمال الخصائص فـــي اللغـــة فـــي استعمالها ، او كما يقول فاليري [1]: (ليـــس الادب الا توســـيعاً لبعـــض خصائص اللغة واستعمالا لها ،لايمكن ان يكون غير ذلك) . وبذا يعيـــش النحوي مع القواعد الذهنية المجردة ، يستوعبها ويحاول تجسيدها بأمثلـــة يضربها من زيد وعمرو ، ويعيش الاديب المبدع في انطلاق استعمال هذه القوالب الذهنية ، ثم يأتي دور المحلل البارع في تحليل النص ليكشف عـــن جمال الخصائص ، او عن خصائص الجمال في استعمال جملة دون جملـــة ، او في استعمال جملة في موقع مفرد ، او في استعمال شبه جملـــة فـــي موقعها ، او في تقديم موقع على موقع ، اوفي زيادة كلمة او حذف اخـــرى ، او في تغيير فونيم الحركة ، او في تنغيم الجملة اوجزء منها ... الـــخ ، وكل بند من هذه تحكمه قوانين الاستعمال اللغـــوي ، او قوانيـــن التنظيـــم

---

[1] اللغة والخطاب الادبي ،ترجمة سعيد الغانمي ص٤١-٥٢.

النحوي ، فيتحقق عنده –أي عند محال النص– الالتقاء بين قيود النحوي ، او النحوي المقيد في منهجه ، والاديب المنطلق في استعماله ، ينصـــرف المحلل من بيان خصائص الجمال الصوتي والصرفي –واقصد بـالصوتي ما يتم بحثه فـي اللسـانيات الحديثـة تحـت مصطلحـي phonology وphonetics وخصائص الجمال التركيبي ثم الارتباط الافقي والعمـودي لدلالة الالفاظ في حدود المبنى الجملي للجملة البؤرة فـي النـص ، كمـا ذكرت سابقا ، ثم يخرج من حدودها ليربط بها غيرها من وحـدات بنـاء النص ربطا دلاليا كأن تؤدي جملة دور التفسير او توضيـح الغمـوض ، اوتؤدي دور التفصيل لمجمل ، او تقييد المطلق او الخروج مـن معنـى المقيد الى رحابة الاتساع ، او باسناد الفعل المجهول بعـد المعلـوم ، او عكس ذلك ، اوبمحاولة اعطاء قناعة بفكرة ما بتكرارها بجمـل ترتبـط بالجملة البؤرة وتلتقي معها ، او باستعمال جمل غايتها تغذية الحوار فـي النص ، او بجمل تهدف صرف الذهن عن الغرض للتمويه او للتعظيـم او للتقليل من الشأن ، او غير ذلك وهو كثير حوار مع النص يجمع في ذهنـه عدداً هائلا من الدوائر ، او العوامل كما يسميها العـالم اللغـوي المبـدع رومان ياكسبون في حديثه عن العوامل الستة في تحليل النص[1] ، وهـي المرسل والملتقي والسياق وقناة الاتصال الشفرة والرسالة .

يخرج بذلك الباحث من دوائر النحو التعليمية الضيقة ، وارجـو ان لايفهم انني اطالب بالغائه ، فهوجهد جبار رائع ،ولكنه قد حصر اوحصـره اهلوه في تلك الدائرة التعليمية الضيقة التي تنحصر في الحركة الاعرابيـة وكيفية استعمالها وتسويغ وجودها بكيفية او اخرى ،حتى اصبح التفنن فـي

---

[1] السابق ص٥٦-٦١.

ذلك غاية يذهب اليها كثير من المتخصصين ، في حين كانت تلك- وهـذا ما يجب ان تكون عليه- عند سلفنا الصالح من المفسرين بخاصة وسـيلة تساعدهم على النظر في ما يمكن ان نسميه (خط سلامة المبنى) ،وهـذا غاية النهاية في هذه المرحلة من النحو بمفهومه التعليمي ،وان كان هذا حقاً ما نصبو اليه من هذه المرحلة ، فالقراءة الجديدة للنحو ستسير في خطين في ما نرى ، يتم في الاول اسقاط عدد كبير من جزيئات القواعد في الابواب النحوية ، والاكتفاء بقواعد اقامة الحركة في الجملة ليحذو من اراد التحدث بالعربية حذو العرب في كلامهم ، ويتم فيه ايضا التخلص من الخلافات التي لامسوغ لها ، كأن يقال الاصل في كذا هو كذا ولكنه يرد بكثرة خلافا لذلك ، كما في الاصل : في الحال الاشتقاق ولكنه يرد جامدا بكثرة ، والاصل في الحال ان يكون نكرة ولكنه يرد معرفة بكثرة ، والاصل في صاحب الحال ان يكون معرفة ولكنه يرد نكرة كثيراً ... وان نظرة في باب الاستثناء تكشف لك عن عدد من الجزيئات التي اثقل النحو بها حتى عسر امره على الباحث فضلا عن الطالب.

اما في الخط الثاني فيفترض ان يتم فيه تصنيف النحو في ابواب تحقق المعنى ، فيتم بذلك الربط بين التركيب ودلالته ، فينصرف الطالب والباحث الى معنى التركيب بعد ان اطمأن لسلامة مبناه ، بدلا من انصرافه الى الحركة الدائرية في دائرة تفسير سبب وجود حركة دون غيرها ، ثم يتم فيه النظر الى استخدام الجملة مرتبطة بغيرها ، وبذا نحقق ما دعا اليه الجرجاني في توسيع دائرة النحو عندما نظر الى النحو بأنه النظم في قوله :" ما النظم الا ان تضع كلماتك الموضع الذي يرتضيه علم النحو " ،وكذلك عندما بين اننا بالنحو نميز الفرق بين التراكيب :

ان تخرج اخرج

ان خرجت خرجت

ان تخرج خرجت

ان خرجت اخرج

ان خرجت فأنا خارج

فأي نحو تعليمي يعطيك الفرق بين هذه التراكيب ، ومثلها في ابواب النحو كثير كثير .

لعل في ما اقول دعوة لاعادة النظر في كثير من قواعد النحو واعادة الترتيب ابوابه لتكون بحسب المعنى ، وليس فقط بحسب التماثل في الحركة الاعرابية ، فيكون هناك باب التوكيد وباب للنفي وغيره للاستفهام ، وباب للنداء وباب للدعاء وباب ... الخ بحيث يشمل الباب كل ما يؤدي معناه او يمكن ان يندرج تحته ، فتكون الحركة الاعرابية –وهي ركن رئيس في اقامة الجملة ،بل هي المسؤولة عن خط سلامة مبنى الجملة – تكون وسيلة وليس بغاية ، فيتم بذلك ضم الجهود البلاغية الى معطيات النحو التعليمي الى جهود اللغويين في اظهار المعنى . ونضرب لذلك مثلا من باب التوكيد ، فالمعلوم في النحو ان التوكيد ضربان : لفظي ومعنوي ،وكلاهما يقومان عل التماثل في الحركة الاعرابية ، ومن هنا ادرج بابهما في التوابع ، فاللفظة المكررة تؤكد سابقتها وتأخذ حركتها الاعرابية ، وكذلك القول في الفاظ التوكيد المعنوي ، فيخرج من التوكيد بناء على ذلك التوكيد بالمصدر – ويكفي ان نقرأ شيئا مما قال سيبويه في كتابه عن معنى التوكيد بالمصدر لنرى شدة التصاقه وانتمائه له– يخرج كذلك

التوكيد بالقسم ، التوكيد بالضمير العائد والتوكيد بالاشتغال والتوكيد بما يسمى بالمدح والذم ، والتوكيد بضمير الفصل ... وغيرها كثير [1].

اذا استطعنا فعل ذلك فأنا اميل الى الثقة -باذن الله - ان الطالب سيرى الحركة الاعرابية وسيلة يقيمها ثم ينطلق للبحث عن معنى ارتباط الكلمة باختها في التركيب الجملي ، ثم عن معنى ارتباط الجملة بأختها في حياكة النص ونسيجه .

قائمة المراجع والمصادر

١-الاخفش ، معاني القران ، ت عبد الامير محمد امين -بيروت، عالم الكتب .

٢-الاشموني ، شرح الاشموني على الفية ابن مالك ،دار احياء الكتب العربية -القاهرة .

٣-الجرجاني، عبد القاهر:دلائل الاعجاز ، ضبطه محمد رشيد رضا .

٤-الجرجاني ، عبدالقاهر : المقتصد في شرح الايضاح ،تحقيق د. كاظم بحر المرجان ،وزارة الثقافة والاعلام ،بغداد ،١٩٨٢م.

٥-ابن جني : الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار ،دار الهدى للطباعة ،بيروت .

٦-الزجاجي، ابو القاسم عبد الرحمن بن اسحق :الايضاح في علل النحو ،ت مازن المبارك .

٧-ابن الحاجب ، الكافية في النحو ، شرح رضي الدين الاسترباذي ،دار الكتب العلمية -بيروت .

---

[1] انظر بحثنا ((الاشتغال النحوي من ابواب التوكيد)) مجلة كلية الاداب -جامعة صنعاء -عدد ٢.

٨-الزركشي، البرهان في علوم القران ،ت محمد ابو الفضل ابراهيم – القاهرة ،مطبعة عيسى البابي الحلبي .
٩-ابن السراج ، الاصول في النحو ،ت عبد الحسين الفتلي-النجف الاشرف .
١٠- السكاكي،ابو يعقوب يوسف :مفتاح العلوم ، ضبطه نعيم زرزور،دار الكتب العلمية ،بيروت ط٢ ١٩٨٧م .
١١- سيبويه ،ابو بشر بن قنبر :الكتاب ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي ،القاهرة .
١٢- السيوطي :الاقتراح في علم اصول النحو ، تقديم وضبط د. احمد الحمصي ود. محمد قاسم ،جروس برس .
١٣- السيوطي ،همع الهوامع ،تحقيق د. عبد العال سالم مكرم ،دار البحوث العلمية –الكويت .
١٤- السيوطي ، الاتقان في علوم القران ،دار الكتب العلمية-بيروت .
١٥- عمايرة، خليل احمد: اسلوب التوكيد اللغوي،دار الفكر للنشر والتوزيع –عمان –الاردن .
١٦- الغانمي ،سعيد(ترجمة) اللغة والخطاب الادبي ،مجموعة مقالات مترجمة ،المركز الثقافي العربي ،بيروت والدار البيضاء ١٩٩٣.
١٧- الهروي ،علي بن محمد ، الازهية في علم الحروف ،ت: عبد المعين الملوحي ،دمشق،مجمع اللغة العربية ١٩٧١م .
١٨- ابن هشام الانصاري : مغني اللبيب،ت مازن المبارك ومحمد حمد الله ،دار الفكر ،ت محمد محي الدين عبد الحمد ، المكتبة العربية .
١٩- المالقي ، رصف المباني في شرح حروف المعاني ،ت احمد الخراط .

٢٠- المبرد، ابو العباس ، المقتضب ،ت محمد عبد الخالق عضيمـــة – القاهرة .

٢١- ابن منظور، لسان العرب ، دار صادر –بيروت .

22- N.Cgomsky, Aspects of the theory of syntax , Cambridge, Mass, MIT Press, 1965 .

23- R.Fowler, An introduction to transformational syntax, London, 1981 .

24- Roman jacbson, Six Iectureson sound and meaning, MIT press .